الباب الأول

شهرة جورج برناردشو

فى عام ١٨٧٨ كان شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، برأس مال قدره ستة بنسات يساوم أحد أصحاب المكتبات على شراء بضع صفحات من الورق الأبيض الرخيص ليسجل عليها بعض ما يتوارد على ذهنه من خواطر وافكار .

وما جاء عام ١٨٩٠ حتى كان ذلك الشاب نفسه قد خطا بقلمه خطوة جريئة نحو التقدم والرقى ، فسرعان ما تطلعت عليه الأنظار ، ورنت اليه عيون جماهير القراء فى لندن وفيما جاورها من بلدان . مأخوذة بحيوية أسلوب ذلك الكاتب الجديد ، مذهولة لغرابة أفكاره وآرائه ، وواسع حيلته وسخريته بالأوضاع والتقاليد .

وفى عام ١٩٠٠ كان الكاتب نفسه يخرج المسرحية تلو المسرحية فيتهافت على المسارح الوف الرواد ، وهم يصخبون يضحكون بطريقة عجيبة لم يألفوها من قبل .

وفى عام ١٩١٠ قدر الرأى العام الانجليزى أن ذلك الكاتب النابغة نفسه رغم شذوذه وغرابته وخروجه على المألوف ، وإن لم يوافقه واحد على آرائه الاشتراكية المتطرفة ، فإنه كاتب محترم .. محترم بما تشمله هذه الكلمة من معان كثيرة ، لأنه كان يكتسب عيشه دون أن يسجن أو يعتقل !

وماهى إلا أعوام حتى كان الكاتب ذاته قد ملأ صيته الآفاق ، وسرى فى العالم مسرى الكهرباء . فتحولت الأوراق البيضاء التى كان يكتب عليها قصصه ومسرحياته إلى أوراق مالية من فئات الأرقام العالية . فغدا حديث الناس . وليس فى انجلترا من لم يشهد مسرحية من مسرحياته . وافسحت له كبريات الصحف اليومية صفحاتها الأولى . وكان فى استطاعته أيضا أن يملأ أى قاعة بآلاف الناس إذا ماشاء ذلك . والناس من عادتهم يحبون كل غريب ، ويحبون برنارد شو

بنوع خاص . وهو يحدثهم فى صوته الجهورى العذب ، وبسخريته عن طريقة معيشتهم وتكييفهم أسباب الحياة . ومضت الأعوام أيضا وبرناردشو فى الطليعة يحتل أرفع مكانة فى الدولة بين الكتاب والأدباء ، فضج الآخرون ، وامتلأت قلوبهم بالحقد عليه ، والكيد له ، والنكاية به . فعملوا جميعا على تشويه سمعته ، والنيل منه ، بكل ما أوتوا من قوة ، فقالوا عنه منذ ثلاثين سنة إنه لم يحصل على هذه الشهرة الواسعة الا عن طريق التهريج . ولاكت ألسنة الكتاب ، خصوصا السلطاء منهم بعض ألفاظ الحقد والحسد فقالوا إنه حشرة بغيضة مخيفة يجب القضاء عليها حالا .

وساء برناردشو أن يلعنه ويسفه من آرائه ويحط من قدره وكرامته طبقة من الناس تحترف مهنة الكتابة والتأليف ، فاستدار لهم ، ونازلهم فى كل ميدان . والقى عليهم أكثر من درس فى علم الأخلاق حتى تقلصوا جميعا أمامه ، وكأن الأرض قد انشقت بهم وابتلعتهم فى جوفها الرهيب .

وما كادت نيران الحرب العالمية الأولى تندلع فى أوربا وتمتد ألسنتها إلى القارات الأخرى ، حتى كان الشعب الانجليزى قد سئم هذا الرجل وتنكر له ، والقى بنصائحه عرض الحائط ، فصمت برناردشو على مضض ، وهو الذى لا يصمت ، وآثر السكون لحكمة عنده .

وما كادت الحرب تنتهى أيضا حتى بدأ الشعب من جديد يبحث عنه فى كل مكان ، ويتلمس آثاره كما يتلمس الضرير الاشياء بحساسية مرهفة ، وتنبه الجيل الجديد فعرف أن آراء هذا الرجل لم تكن هراء أو تخريفا أو تدجيلا كما كان يذاع عنه فى مستهل أيامه ، بل اتضح له أن هذه الآراء جميعها كانت صحيحة ، واسعة الافق بعيدة الأثر فى النفوس ، فاندفع الناس ورائه بكثرة لا نعرف لها حصرا أو عدا ، ولقبوه « بالنبى » وأصبحت تعاليم برناردشو عندهم فى منزلة تعاليم الأنبياء والمرسلين .

واليوم وقد بلغت شهرة برناردشو أعلى ذروة فى الوجود ، يقول لك عنه البريطانيون « إنه انجلترا نفسها » أو إنه « أعظم كاتب للدراما فى العصر الحديث » أما

الايرلنديون فيقولون عنه « هو مثال للعبقرية المتفجرة التى لا تخرج الا من بلادنا ... ايرلندا ! »

وهو فى نظر كثير ممن عرفوه معرفة جيدة ، ودرسوه دراسة وافية ، رجل يختلف عن كل رجل . وليس لأنه كاتب دراما من الطراز الأول ، أو متحدث مفوه ، أو اشتراكى كبير ، أو ناقد مرهوب الجانب أو حتى خليط من كل ذلك . . وقد يكون الرجل العادى خليطا من هذه المواهب جمعاء ، ولكنه قد يفقد المقدرة على إثارة شعور سائر الطبقات ، على اختلاف أنواعها وتباين مشاربها وأهوائها . . .

ولكن برنارد شو كان قادراً على أن ينفث فى الناس شعور الإقدام ، ويحرك الجماد ، ويذيب الصخر بكلماته الخالدة ، فسارت بذكره الركبان . .

المؤلفون وبرنارد شو

حاول كثير من المؤلفين أن يدونوا آراء برنارد شو على القرطاس ، ويحللوا شخصيته تحليلا دقيقا ، ليظهروه كعظيم من عظماء التاريخ ، وكيف أنه أثر على تفكيرهم ، وأخصب إنتاجهم ، فاعترفوا بفضله عليهم . وحاولوا جاهدين أن يقدموه إلى العالم ، وهو فى غير حاجة إلى تقديم ، كآية دقيقة المعالم ، لا يتطرق اليها أدنى عطب أو خلل . . فكتبوا عنه كثيرا وملأوا الدنيا ضجيجا حوله . .

ولنبدأ بكتاب أرشيبالد هندرسون ، أستاذ الرياضيات الأمريكى المعروف ، فنقول إن هذا الكتاب يسجل تقدم برنارد شو فى كل حقل من حقول نشاطه . وهو كتاب دقيق ، ومرجع قيم ، ولكن المؤلف يتحدث فيه كثيراً عن نفسه أكثر مما يتحدث فيه عن موضوع برنارد شو . .

وهو على كل حال يختلف اختلافا بينا عن كتاب « فرانك هارس » مثلا الذي تخبط فيه الأخير خبط عشواء ، ونسب إلى نفسه الكثير من مشابهته لبرنارد شو كما نسب لنفسه الكثير من الفضل فى أكثر من صفحة من الكتاب ، مثله فى ذلك مثل الطفل الذى زار حديقة الحيوان مرة عاد بعدها يقص على الأطفال من زملائه كيف أنه صفع فيلا ضخما هناك !!

ومن أمثلة هذا التخبط العجيب فى كتابة هارس قوله « وفرقنا الرئيسى مصدره أن برناردشو أراد أن يكون رجل عمل فى حين أننى كنت ذلك الرجل ! » أو قوله « فهو إذن ليس عظيما كما يدعى هو لنفسه . . »

واستمر هارس على ذلك المنوال ، حتى أنه كثيرا ما وجد نفسه مضطراً قسرا إلى التعدى على الرجل بكلمات جارحة ، وهو ذلك الذى يدعى أنه يماثله فى عظمته ونبوغه ، وعلو همته ؟ !

أما كتاب الأديب الانجليزى الكبير تشسترتون الذى كتبه عام ١٩٠٥ فيختلف أيضا عن هذين الكتابين اختلافا كبيرا . وإن كانت محتوياته رديئة ، أى أنها لم تكتب بالمهارة التى كانت تنتظر من الأديب الكبير . وقد علق أحد النقاد على هذا الكتاب بعبارة أقضت مضجع تشسترتون ونغصت عليه بقية حياته وهى : « إن تشسترتون فى كتابه هذا كأنه جمل استنوق ، أو كلب نيوفوندلاندى تظاهر بأنه قطيطة . ! . »

أو ما كتبه أحد القراء على الصفحة الأولى من هـــذا الكتاب — كتاب تشسترتون — بالخط العريض بعد قراءته له هذه العبارة « أجمل تبجح كتب الى الآن » ولعل هذه النسخة قد تعبت من كثرة الأيدى التى تداولتها فى مكتبة «دبلن» والتى كان يحج إليها الكثيرون ليقرأوا تعليق القارىء البليغ . .

ولكن هذا « التبجح » تحول بقدرة قادر إلى تقدير مواهب برناردشو — رغم أنف الحساد — وإظهار عبقريته الفذة فى وقت كان النبوغ فيه معدوماً ، والعبقرية خرافة لا يعتقد فيها الجيل الجديد . . .

ولم يكن فى مقدور تشسترتون أن يمدح برناردشو أو يعترف بمواهبه أو بنبوغه أو حتى بعبقريته ، ذلك لأن شو إيرلندى وتشسترتون انجليزي ! ! ففاته الكثير ، ولم يوفق كل التوفيق فى عرضه لحياة ذلك الرجل العظيم برنارد شو ! !

أما كتاب الاستاذ «ج.ب.هاكت» فهو كتاب معتدل من نواحى السرد والاخبار والتحليل . ولا يحاول صاحبه فيه أن يقف على السر الذي لفت انظار الانجليز

والروس والامريكان واليابانيين والألمان إلى برناردشو ، واضطرهم أن يمنوا له ها ماتهم ورقابهم الطويلة ، ويلقوا اليه بالذهب الرنان من غير حساب . . .

اللغـــز الخالد

برنارد شو لغز - كما يقول هاكت كمثل لغز - كابتسامة شارلى شابلن الساحرة ، وموسيقى كلمات شكسبير الخالدة ، لغـــز لا يستطيع حله أو فك طلاسمه ، لأنه لا يعرف مفتاحه .

وهاكت على ما أعتقد محق فيما ذهب إليه ، بل لعله كان أعقل هؤلاء الكتاب الذين ترجموا حياة برنارد شو . لأنك أيها القارىء إذا أردت أن تدرس برنارد شو دراسة وافية فعليك بقراءة آثار برنارد شو نفسه . وحتى هؤلاء الذين لايحتملون ضجيجه وآراءه ، عليهم أيضا أن يقرأوا له . ويقرأوا له بصبر وروية وأناة .

إنه يطابق كل الأذواق . فرجال السياسة والتجربة سيجدون كتابته مملوءة بكل ما يبحثون عنه . وحتى هؤلاء الخطباء الفصحاء ، مهما بلغت بهم الفصاحة وأسباب البيان ، سيجدون كلماته ترتعش على شفاهم . . والأمهات أيضـا سيجدن في تعبيراته مادة دسمة لردع بناتهن المتمردات . وأولئك المتمردات سيجدنه أول من يدافع عنهن ! ! .

ولاتدهش أيها القارىء ، إذاقلت لك إن قطاع الطرق وأخطر اللصوص سيتبعونه بحماس زائد ، ونفوسهم تكاد تلتهب حقداً على ما يصفه لهم من متاع القصور الباهر وثرياتها التي تبهر الأبصار . . والقتلة السفاكون أيضا سيعودون إلى سفك الدماء إذا ما رأوه قادما نحوهم من بعيد . !

استمع يا صاحبي إلى تلك المقدمة التي كتبها برنارد شو مرة . .

يقول بالحرف الواحد ، لو يسرت لى الحياة أدنى فرصة لمناقشة روح رجل نفذ فيه حكم الإعدام حديثا لجريمة قتل اقترفها ، فمما لا شك فيه أنه سيبدأ يقص على طريقة محاكمته . ويسردلى قائمة السيدات والأسياد الذين شرفوه فى المحاكمة ليشهدوها

ثم عن تنفيذ حكم الإعدام . وكل هذا قد يضايقني بدرجة كبيرة . ولكني سأسأله فوراً .

« أيها السيد العزيز ، إن هذه الأجواء المنمقة لا تعنيني في كثير أو قليل . . . فأنا على عـــلم بمثل هذه المحاكمات ، وكيف تدور إلى تنفيذ حكم الإعدام فيك ولو كنت مكانهم لقتلتك اشنع قتلة من غير ضجيج أو احتفال رسمي . آه لو كان الأمر بيـــدي !

« وكل ما أريد معرفته يا بطل ، هو كل ما يتعلق بالجريمة نفسها . جريمة القتل ! كيف كان شعورك عند ارتكابك الجريمة ؟ كيف فعلتها ؟ وما الذي قلته لنفسك عنها ؟ فلو لم تعدم ، كـكثير من القتلة أمثالك الذين برأتهم ساحات المحاكم ؟ هل كنت ترتكب جريمة ـ استغفر الله ـ أقصد جرائم أخرى ؟ وهل حقا كنت تكره الضحية ، أو كنت تريد مال القتيل ، أو قتلت شخصاً لم تكن تضمر له أي سوء ؟ ومن موته لن تستفيد شيئا . فقط من أجل شهوة القتل ؟!

« ولو كان الأمر كذلك فهلا تكرمت علي أيها المجرم بوصف الموقف وصفاً دقيقا ؟ . .

وهل يعاودك هذا الحنين إلى القتل من وقت لآخر أم أنه مزمن فيك ؟ هل لحب الاستطلاع دخل في كل ذلك ؟ ! »

ولسوف انهال عليه بالسؤال تلو السؤال ، حتى أعرف ماهيـة الجريمة ، ولن أقتنع حتى أكون قد لمست بنفسي معيار الصدق فيه . فمن يدري ، فقد ارتكب أنا الآخر جريمة قتل في يوم ما . . وإلا فمعنى هذا أن في المجرم صفة معدومة عندي ! !

وإذا كان الأمر كذلك . فأي نوع من الصفات تكون ؟ ! »

ألا يضحكك هذا الأسلوب أيها القارىء ؟ الا تتخيله أسلوبا هزليا فاخراً . ومن العسير علي وعليك أن نعتقد أنه كان جاداً في عرضه لتفسير حالة الجريمة تفسيراً دقيقا وهو يكتب إحدى دراماته المشهورة .

وثمة شيء آخر يجب أن تعرفه . وهو أن الرجل الذي تغريه عبقرية شو

فيحاول جاهداً أن يقف على أسبابها . لابد له أن يعرف أن رجلا كبرنارد شو آلى على نفسه، وهو فى الحلقة الثانية من عمره أن يكون أمينا مع نفسه، ومع العالم كما رآه. وكان من المقدرة بمكان أنه حافظ على هذه الحياة المثالية خلال سبعين عاما ، لم يتطرق اليها أدنى خلل . وفى العالم برز وجاهد وكافح من أجل المجتمع الانسانى . فلم يعتد عليه انسان ، أو بمعنى آخر لم يغتله انسان ، كما حدث ويحدث فى كل بلد من البلاد مع كبار الساسة والزعماء .

نصيحتى إلى ذلك الرجل الذى يريد أن يدرس برنارد شو أن يدرسه على حقيقته وقد يكره فيه سلاطة لسانه ، ولكنه لن ينكر عليه دفاعه عن الحق المهضوم . دفاعه من أجلى ومن أجلك ومن أجل كل مخلوق يعيش على هذه الأرض . أنه يفتح الأذهان . . يجبرك على التفكير فى أمر نفسك .

نظر برنارد شو حوله فاذا الناس سائمة هائمة على وجهها لا تعرف عن نفسها شيئا ، فاهاب بهم ، ودعاهم إلى أن يفكروا بتروٍ وتمهل . حتى يشعروا بانسانيتهم وبطبيعة خلقهم ، ولماذا هم يعيشون فى هذا الكوكب ؟ لأى غرض جاءوا وأين يستقر بهم المطاف يا ترى عند ما يتركون هذا العالم إلى عالم المجهول ؟ !

تكهن أحد الكتاب الانجليز بأنه سيأتى يوم تمنح فيه جامعات أوربا وانجلترا درجات خاصة فى العلوم والآداب . تطلق عليها درجة برناردشو فى التربية ، أودرجة برنارد شو فى الفلسفة ، أو درجة برنارد شو فى الحقوق الخ . . وذلك لأن آثار هذا الرجل تزن مئات الأرطال . وهى كفيلة وحدها بأن تكون دستوراً جديداً لمناهج التدريس ، إن لم يكن فى هذا القرن أو فى القرن القادم فسيكون فيما يستجد على الأيام من قرون !!

بل لقد ذهب الكاتب إلى أكثر من ذلك فقال : ومن يدرى ؟ فلعل الجامعة لن تمنح الطالب هذه الدرجة إلا بعد أن يكون قد ضيع ما يربو على الخمسين عاما فى دراسة برنارد شو ، وهى على كل حال ستعقد له امتحانا قاسيا لارحمة فيه ولا هوادة يدلى فيه برأيه فى النقاط الثلاث الآتية :

(١) فسر عقيدة برنارد شو بوضوح واسهاب ؟

(٢) ما الذى تعرفه عن تصرفات برنارد شو اليومية . صفها بإسهاب ؟

(٣) اثبت أن هناك علاقة بين ما جاء فى السؤال الأول والسؤال الثانى .

إن هذا الكاتب يعتقد اعتقادا جازما بأن كتب التاريخ مثلا أصبحت عملة ، وعلى الجامعات أن تغير مناهجها ، وتحاول أن تدرس هذا الرجل دراسة دقيقة مسهبة . وهو على استعداد لأن يثبت لها أن دراسته ستأخذ منها أجيالا برمتها . لأن برنارد شو قد نال من التجربة أكبر قسط ، ودون فى كتبه ومؤلفاته ما لم يدونه التاريخ نفسه على تعاقب الأحقاب والأجيال . .

إنه أكثر من ميكروسكوب وأكثر من قنبلة ذرية ! !

أنه أكبر معلم فى هذا الجيل . . وعالم جليل من علماء التربية ـ مهما أنكر عليه الناس ذلك ـ وإن لم يكن لديه موضوع ثابت فى التربية يحدث الناس عنه ! !

لايسوء برنارد شو غير شىء واحد ، هو أن تلاميذه يضيعون أوقاتهم فى دراسة ما قاله وما كتبه . . أى أنهم رسموا لحياتهم منهاجا مستمدا من آرائه وأنهم بذلك لغافلون . . لأنهم يتركون الجوهر ويتشبثون بالقشور الزائفة . أو عند ما يتخذون عبارة من عبارته فإنما يدفنون أنفسهم فيها أحياء ! !

إن قانونه كان دائما ينص على أن دستور الناس ليس فقط وقحا أو سليطا ولكنه مستحيل . . ولو كان الناس من السذاجة بمكان أنهم يجرعون أى جرعة تقدم لهم أو أقدمها أنا لهم من غير تبصر وفهم ! فهم وحدهم الملومون إذا ظهرت عليهم أعراض النتائج العكسية ! ! »

وأخيرا فإن برنارد شو لغز . . لغز خالد عسير على الأيام حله .

أنه لا يزال حيا يرزق . والناس معه أحياء يرزقون . ولكن نظرتهم له لا تزال قصيرة وضعيفة : فإني لأحدهم أن يكشف القناع عنه حقيقة ، ليطلعنا على حقيقة ما يكتنف عالمه من غموض وإبهام .

لقد حاول كل كاتب أخرج عنه كتابا ذلك من قبل ، وتبارى فريق كبير منهم ، ولكنهم باءوا جميعا بالفشل الذريع . .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الكتاب جميعا ـ ولست متحديا إياهم ـ فهذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارىء يحاول جاهدا أن يطلعك على نوع اللغز لعلك أنت تكشف عنه ، ومن يدرى ؟ فهذا كثير الحدوث .

يقول النقاد : لماذا كل هذا الغموض الذى تنسجونه حول الرجل ، ثم ترتفعون به إلى الطباق السبع ! لماذا تقولون عنه إنه لغز غامض أو لغز خالد . .

وهو لا يستحق شيئا من هذا كله . . سهل بسيط ميسور التفسير ؟ !

وسرعان ما ترد عليهم فئة أخرى من النقاد فيقولون ! إنه أمر لا يمكن البت فيه برأي صائب أو سديد . وهكذا الحال مع كل قصة جيدة . وقصة برناردشو أجود وأحسن قصة ظهرت فى الوجود . لقد ذكرها فى كتاباته ، ولكنها قصة عسير على الإنسان أن يتتبعها بسهولة ، ذلك لأنها قصة طويلة من ناحية ، ولأنه أراد أن يقول الصدق كله كاملا غير منقوص عن بيئته ونشأته من ناحية أخرى ، ولهذا كله بدت القصة للناظرين لغزا خالدا لا يمل . . .

ومفتاح هذه القصة هى عقيدته وحماسته وتنفيذه لبرنامج خاص آلى لم يخل منه وكأنه لم يكن من البشر بل كان آلة من الآلات . . .

ولأن له رأيا خالداً فى العالم ومكانه فيه . وهو يعيش لعقيدته . . . ويملأ حياته بهذا الاعتقاد الراسخ المكين . .

إن اعتقاده غريب ، ولكن الشك لا يرقى إلى إخلاصه لعقيدته وإيمانه . . .

إن الجبال قد تدك وتزول ، وحتى الصخور الصماء الراسخة قد تتزحزح من أمكنتها وتتناثر فى الفضاء أشلاء بفعل عواصف الزمن ، ولكن إيمان هذا الرجل لعقيدته راسخ لا يتزعزع قيد أنملة .

لم يحاول برناردشو أن يخفى اعتقاده عن الناس أو يجاهرهم به. فمن جوهر الإبسنية. ١٨٩٠ إلى مقدمة « الرجوع إلى متوشالح ١٩٢١ » إلى « الفتاة السوداء ١٩٣٢ » الى قاموس السياسة ١٩٤٤ » وهو يدافع عن هذه العقيدة دفاع المستميت . .

هذه العقيدة فى جملة قصيرة هى « قوة الحياة » دينه الأوحد الذى يبشر الناس به.

إن برنارد شو لغز ولغز خالد لا شك فيه . . .